الأهرام

المصدر: الحيـــــــــــــاة

التاريخ: ٣ جمادى الاولى ١٤١٣ هـ

ما تبقى من الاسلام المسلمين في بولندا (١ من ٢)

التتر غزوا البلاد واستوطنوها وحافظوا على تقاليدهم الاسلامية

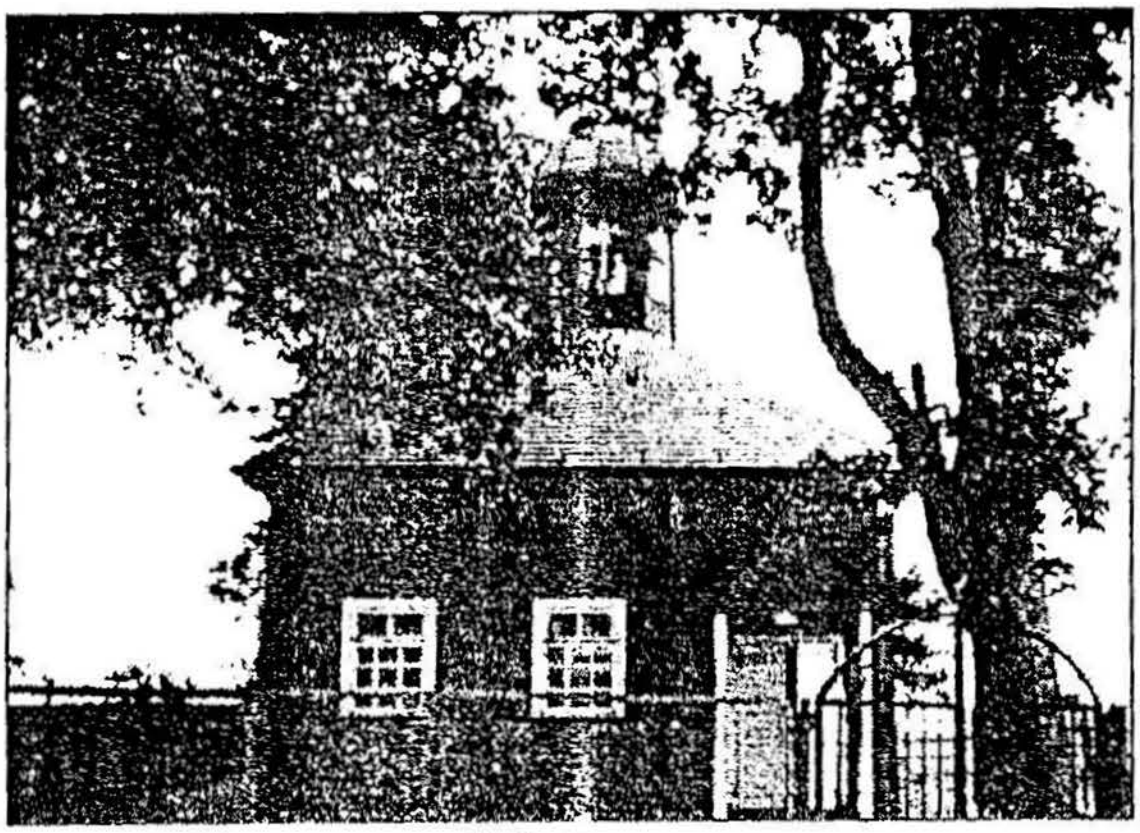

مسجد بوهونكي. (الحياة)

□ شرق بولندا - من سيبستيان اشر:

■ على طول حدود بولندا الشرقية تترامى غابات واسعة في منطقة تعاقبت عليها مجموعات بشرية مختلفة خلال قرون عدة. كانت في ايام سالفة وطناً لخليط هجين من الناس بينهم الارثونكس والبروتستانت والكاثوليك واليهود والمسلمون الذين عاشوا معاً هنا على حافة اوروبا. وفي هذا القرن امحت اثار اليهود كلها تقريباً، ولم يبق سوى حطام معابدهم الخربة ومخيمات الاعتقال النازية التي اوت اعداداً منهم في الماضي. ولا تزال المنطقة تزخر بالكنائس الارثوذكسية التي انفرط عقدها فلم تعد متصلة بمركز واحد. وهناك عدد من الكنائس البروتستانتية يتناقص حجم روادها باضطراد، بالاضافة الى مسجدين اثنين.

اهم مدن هذا الجزء من بولندا هي بيالبستوك التي كانت في الماضي احد ابرز المراكز التجارية في شرق البلاد. ومع انها فقدت بريقها بفعل الحرب العالمية الثانية و٤٠ عاماً من

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الشيوعية، فما تزال سوقها تستقطب زواراً من الروس ياتونها يومياً لبيع بضائعهم. وقبل الحرب العالمية الثانية كانت هذه السوق بمثابة معرض للذهب والفضة والجلد والمواشي التي تاجر بها سكان المدينة من مسلمين وغيرهم.

وهؤلاء المسلمون بولنديون نوو اصل تتري من احفاد جنكيزخان وتيمورلنك و«الامبراطورية الخرافية» التي تعرف عليها العالم من خلال ما نقله ماركو بولو ورحالة اخرون قبل ان يروع مساربوها الدمويون دولاً بعيدة وقريبة. وكانت بولندا من اكثر الدول تعاسة اذا واصل التتار شن غزواتهم على اراضيها طوال قرون اربعة سيطروا خلالها على اجزاء منها لم يلبثوا ان تركوها وقفلوا عائدين الى امبراطوريتهم الواسعة. وفي القرن السابع عشر تمكن الملك البولندي يان الثالث سوبيسكي، الذي فوت على الاتراك فرصة تحقيق مطامعهم في اوروبا اثناء حصار فيينا (١٦٨٣)، من وضع حد لغارات الاتراك والتتار ضد بلاده. ومع ان بولندا حصنت نفسها من غزاة التتار فانها لم توصد ابوابها دون التجار والمزارعين الذين هاجروا اليها خلال القرن السابع عشر بحثاً عن لقمة العيش بسلام. ولا تزال المسالك التي تدفقوا عبرها تدعى طرق التتار «الاقل شاناً» لكنها الآن مغطاة بالاوساخ، تتلوى في حقول خضراء مهملة بين الغابات.

وعلى مسافة ٤٠ كيلومتراً من بياليستوك تقع قرية بوهونكي وكروزينياني وتبعد احداهما عن الاخرى قرابة ٢٠ كيلومتراً. وتبدو القريتان الجاثمتان على حافة الجزء الاقصى من الحدود البولندية - البيلوروسية كئيبتين منسيتين. وعلى جانبي الطريق الذي يمر وسط كروزينياني بيوت خشبية متواضعة تقف باعتزاز بين الاكواخ المتهالكة والمهشمة المتناثرة هنا وهناك بجوارها. والقرية شبه مهجورة لا يؤنسها السكان الا في الصيف، حتى ان المدرسة اغلقت هذا العام بسبب ندرة التلاميذ.

وعلى هذا الطريق الرئيسي التقينا رجلا مسناً (الكسانتر بويلافسكي) لم يبد اية دهشة او اهتمام عندما رجوناه ان يساعدنا على زيارة مسجد القرية، بل قال: «هيا بنا فالمفاتيح بحوزتي». قادنا عبر طريق جانبي تحف به اعشاب وحشائش نمت عشوائياً، وحقول جرداء واسعة من الجهة الاخرى حيث بدت صخرة كبيرة هي نصب تذكاري لحملة الملك يان الثالث الظافرة ضد التتار (وفي كل القرى المنتشرة على طريق التتار توجد صخرة مماثلة تحمل النقش التذكاري ذاته). وعلى مقربة من النصب يقع الجامع خلف اشجار تحجبه وكانها تقدر طبيعة هذه البلاد الكاثوليكية. ويبدو البناء الخشبي الصغير مماثلاً لاية كنيسة او صالة عامة متواضعة في قرية بولندية، لولا الهلال باللون الذهبي الذي يشع من اعلاه.

تبعنا دليلنا المسن الذي مشى ببطء الى داخل المسجد وبدا باسماعنا كلمة كان اعدها سلفاً لمناسبات كهذه على الاغلب وفيها عدد اركان الاسلام الخمسة وتلا سوراً من القرآن الكريم كما وصف المحراب الذي يتجه ناحية مكة المكرمة. ربما اثر الكسانتر التشبث بالقديم الذي حفظه عن ظهر قلب بعدما تغيرت معالم قريته التي الفها وابتعد او قضى كثير من اهله واصدقائه.

من هؤلاء البعيدين اولاده الذين ذهبوا للعيش في مكان آخر، لكنهم يواظبون على تادية واجباتهم الدينية. لم يبق في القرية سوى سبعة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الينا بوغدانوفش في المسجد.(الحياة)

مسلمين يؤدون صلاة الجمعة معاً، احياناً، في المسجد الذي لا يفتح ابوابه عادة الا خمس مرات في العام لاحياء الاعياد الرئيسية. وفي هذه المناسبات يأتي امام من بياليستوك ليؤم الكساندر وزوجته وخمسة آخرين. اذ ليس للمسجد الصغير إمامه منذ ١٢ سنة.

اما في الماضي فعاشت في القرية اربعون عائلة مسلمة قبل الحرب العالمية الثانية التي يتذكرها الكساندر جيداً اذ امضى سنة كاملة في معسكر اعتقال ستالييني عقب نهايتها. ولم يكن اسعد حظاً مع رفاق ستالين البولنديين فهؤلاء صادروا ارضه (٥٠ هكتاراً) التي كان يزرعها مثل كثير من مسلمي القرية الفلاحين. واشتغل بعضهم ايضاً في تجارة الخيول التي عرفت بها هذه المنطقة من بولندا، بلاد الفروسية كما سميت قديماً.

وسكنت عائلة الكساندر القرية منذ زمن طويل، فهو يقول: «كل اجدادي واسلافي يرقدون في المقبرة، اذ عاش اهلي هنا منذ ما يزيد عن ٢٠٠ عام، وشيد الجامع في الفترة ذاتها تقريباً». لكن كم يستطيع هؤلاء المسلمون السبعة ان يعيشوا هنا على حد الكفاف في ظروف صعبة كهذه، اذ ربما تعذر على شبابهم وبناتهم العثور على القرين المناسب نظراً الى ضآلة عدد المسلمين. لا يوافق الكساندر على هذا الافتراض لان «هناك فتيات كثيرات على الدوام».

احدى هاتيك المسلمات تعيش مع ٢٤ مسلماً ومسلمة في قرية بوهونكي التي تبعد عشرين كيلومتراً الى الشمال، وتنتشر ببوتها وسط حقول واسعة. وبخلاف الدين الذي يبقى عميقاً في القلب، يحمل وجه الينا بوغدانوفش (١٩ سنة) ملامح تترية واضحة تميزها عن غيرها من الفتيات البولنديات. والصبية التي تنتظر عريسها المناسب لا تفصل بين دينها واصلها القومي، وان كانت تحمل هذا الاخير مسؤولية صعوبات تعترضها: «كيفما ذهبت تلاحقني المتاعب (-) لانني تترية». تقرأ الينا اللغة العربية بصعوبة من دون ان تفهمها تماماً لكنها تحكي البولندية النقية من اية الفاظ عامية مما يجعلها شبه مستعصية على الغريب، كما هي الحال مع لغة الكساندر. وهي تختلف عنه ايضاً في عدم حماسها للتمسك بالماضي واثاره، فالظروف البدائية في قريتها النائية تجعل الحياة هناك صعبة للغاية بالنسبة الى شابة في مقتبل العمر.

وعلى رغم حيرة الينا من رغبتنا بزيارة المسجد لم ترفض ان تلبيها، بل اخذتنا الى المبنى البسيط الذي اقيم في القرن الثامن. وعدا عن شبابه بالمقارنة مع جامع كروزيتياني، فهو يبدو اكثر عافية من هذا الاخير، ويتميز عنه بجدرانه المطلية التي زينتها لوحات تحمل آيات قرآنية كريمة او عبارات دينية شهيرة. كما وزعت بسخاء في ارجائه سجاجيد من النوع المألوف لدى المسلمين اضفت على نهو المسجد ومحرابه بعض البهاء. ومع ذلك، فهو مغلق دوماً باستثناء مناسبات محددة.

الطبيعة لها متحفها الخاص بتلك المنطقة. ففي الجوار تمتد البقعة المتبقية من الغابة التي غطت اوروبا كلها في الزمن القديم. تقدم العمر باشجارها فتطاولت جذوعها العملاقة التي لا تزال تذكر المرء بعزها السابق. والمسجدان اللذان غصا بالمصلين يوماً ما، هما ايضاً شاهدان على ايام سالفة وزمان ولى يحس الزائر بقاياه في القرى المهجورة البعيدة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية